الإيمانُ والعملُ الصالح
رؤيةٌ مفتوحةٌ لعالمٍ جديد*

عبد الله بن محمد السالمي ■

أ ـ يُحـدّد القـرآن الكريـم العلاقـات بين المسـلمين وأهل الكتـاب في نـداءٍ أو دعوةٍ للكتابيين من جهـة، وفي خطابٍ إلى المسـلمين من جهةٍ أُخـرى. ففي النداء أو الدعـوة يقول ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سـورة آل عمران: 64]. أمّـا فـي الخطـاب الـموجَّه إلى المسـلمين فيقـول ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سـورة العنكبوت: 46]. فإذا تأمَّلْنا الدعـوةَ والخطابَ في

* أُلقيت الكلمة بجامعة أكسفورد، المملكة المتحدة، سبتمبر 2011م.

■ وزير الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان.

bookaltafahom 34.indb 367 1/3/12 8:32 AM

ســياقٍ واحدٍ نجدُ أنهما يقومان على مبدأين اثنين: أحدُهُما عَقَدي، وهو مبدأُ التشارُك في الدين الواحد أو القولُ بوحدانية الإله، والآخَرُ مترتِّبٌ عليه، وهو نَظَـرُ أحدنا إلى الآخَر على قدم المُســاواة من كلِّ وجه: في الإنســانية والكرامة والاســتقامة في التعامُل، وعدم اعتقاد الأفضلية أو التقدم: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. ولنلاحظْ أنّ مطلبَ الابتعاد عن الشِـرْك يوصَفُ في الخطاب بأنه إنْ وقَع فالذين وقعوا فيه وقعوا في الظُلم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ لأنه ﷻ يقول في آيةٍ أُخرى في ســورة لقمان: 13 ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وهكــذا يكونُ هذا الظُلْم واقعاً لجهتين: جهة الإخلال بمبدأ وحدانية الخالق، وجهة الخطأ تُجاه وحدة بني البشــر وتَســاويهم أمام الله وفيما بينهــم. ثم إنه في الآيتين، أو النداء والخطاب كلٌّ منهما ينتهــي بأنه مهما كانت ردّةُ فعل المخاطبين من أهل الكتاب؛ فإنّ المسلمين يظلُّون على التزامهم بالنداء والخطاب ومقتضياتهما. ففي الآية الأُولى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. وفي الآية الثانية: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، أي نحن ملتزمون بوحدانيــة الأُلوهية والربوبيــة، ونحن ملتزمون بالكلمة الســواء العادلة والضامنة في أن تُعامِلَ الآخَرَ في هذه الدنيا كما تُعامل نفسَكَ على قدم المساواة، دونما تَعالٍ ولا إسْرافٍ أو إجحاف.

ويجدُ هذا المسار المبدئيُّ تصديقاً له في العَرْض المُنصِف لتاريخ الجماعة أو الجماعات المســيحية في العقيدة والتاريخ، إرشــاداً لأتباع الدعوة المحمديــة إلى كيفيــات التعامُل مــع أقرانهم وشــركائهم من المسيحيين في الزمان الجديد. فقد ورثوا الكتابَ فكان منهم مَنْ أحسَن وســبق: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [ســورة فاطر: 32]. وحتّى عندما كان أتباعُ عيسى ابن مريم عليه السلام يخطئون،

bookaltafahom 34.indb 368 1/3/12 8:32 AM

فإنما كان ذلك بقصدٍ حَسَنٍ، ودون أن تُفارقَهم أخلاقُهُمْ السمْحة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۞ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد: 26ـ27]. وإذا وصل الأمر إلى عصر النبي، ومستقبل الأَدهار؛ فإنّ المسيحيين في نظر القرآن هم أهلُ الشراكة الأفضَل للمسلمين: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [سورة المائدة: 82ـ83]. وهكذا ومرةً أُخرى هناك الاعتقاد الواحدُ، والمتمثّل بالشراكة في الإيمان وقيمه والعمل الصالح، ووحدة النظرة إلى إنسانية الإنسان بين المسيحيين والمسلمين، وهما الضمانُ والضمانةُ لسواد أخلاق المودة والرحمة في العلاقة بين الجماعتين، وفي علائقهما معاً بسائر بني البشر، انطلاقاً من الإلزام الإلهي بالكلمة السواء، والالتزام الأخلاقي برعاية ذلك فيما بينهم، ومع الناس أجمعين.

إنّ هذه «الكلمةَ السواء» المؤسَّسة على الوحدانية، والمسدَّدة في الحياة الإنسانية بالمُساواة وعدم التربُّب تحكُمُها وتحرسُها قيمٌ وأخلاقٌ هي «الوصايا العشر» لدى أهل الكتاب، وهي ذاتُها قيمُ الكرامة والرحمة والعدل والتعارُف والخير العامّ، التي تتكرر عشرات بل مئات المرات في القرآن الكريم. وهي تَرِدُ بثلاثة أشكالٍ وسياقات. فهي تَرِدُ أولاً والمخاطَبون بها المسلمون، إمّا للأمر بها أو باعتبارها سِماتٍ لهم. وهي تَرِدُ ثانياً باعتبارها من قيم التماثُل والشراكة بينهم

bookaltafahom 34.indb 369 1/3/12 8:32 AM

وبين المسيحيين. وهي ترِدُ ثالثاً بوصْفها استباقاً أو تسابُقاً أو تنافُساً حميداً بين المسـلمين والمسـيحيين في التعامُل بين الجماعتين، وفي تعامُلِهما معاً مع البشـر الآخرين، سـواء على سـبيل الدعوة، أو على سـبيل طرائق التعامُل. فالمسيحيةُ والإسلامُ لا يتشاركان في الوحدانية فقط؛ بل يتشاركان أيضاً باعتبارهما دينَين تبشيريَّين أو دَعَويَّين، بلُغة المسلمين. فالإسلامُ يرى نبيَّه مُرسَلاً رحمةً للعالمين، والمسيحيةُ ترى دعوتَها بُشـرى بالخلاص. وهكذا فإنّ الدعوةَ أو التبشـير أو الشهادة على بني البشر أو أمام اللّه تعني أصلاً الحرصَ بالمعنى الإيجابي على إشـراك الآخَر العالَمي في هذه الخيرات الإلهية (وهـي خيراتٌ قيميةٌ وأخلاقية في الأسـاس)، والتي حصل عليها المسيحيُّ كما حصل عليها المسلم.

ب ـ صراعاتُ الهيمنة واختلالات العلائق:

إذا كان هـذا التوحُّـد والتآزُرُ قائمـاً على مسـتوى الاعتقاد وعلى مسـتوى المنظومة الأخلاقية، فكيف حدث الاختـلال إذن؟ وهو بالفعل اختلالٌ عظيـم. فمنـذ كانت المسـيحية، ثـم كان الإسـلام، ظهرت وانتشـرت نزاعاتٌ هائلةٌ في المجـالات المتجـاورة والمتباعدة، وعلى المسـتويات المحلية والعالمية. وقد اتخذت تلك النزاعات والصراعات أسماءً وعناوينَ مختلفة، مثل العرب والبيزنطيين، والمسيحية والإسلام، والحروب الصليبية، والعثمانيين والأوروبيين، والشرق والغرب. وقد أراد بعضُ المؤرّخين نسـبة ذلـك إلى الاختلافات في الاعتقـاد. وقد يمكن النَظَرُ في ذلك، لولا أننا نعرفُ أنه حتى الحروب ذات الصبغة الدينية كانت لها أُصـولٌ وخَلْفياتٌ لا علاقـة لها بأديـان المتحاربين. ثم إننا نحن جميعاً نعلم أنّ حروبَ أهل الدين الواحد أو الاعتقاد الواحد كانت

bookaltafahom 34.indb 370 1/3/12 8:32 AM

أفظعَ وأعظمَ من مثيلاتها مع الآخرين الذين لا يقولون بالعقيدة ذاتها، ولا ينتمون إلى الحضارة ذاتها. ولذلك لا بُدَّ من البحث عن أسبابٍ أُخرى للنزاعات بين المسيحيين والمسلمين، وبين هؤلاء وأولئك من جهة، وأرباب الديانات والعقائد الأُخرى من أُمَم العالم. ودعوني أستبق الأُمور بعض الشيء فأُذكِّر بما قاله الدالاي لاما عام 1999م عندما كانت حركة طالبان تقصِفُ بالمدفعية تماثيل بوذا بالباميان، وهي مقاطعةٌ بأفغانستان دخلت إليها البوذيةُ في القرن الخامس أو السادس للميلاد. قال الدالاي لاما: لقد مضت علينا قرونٌ وقرونٌ في جنوب آسيا وشرقها، ونحن نشهدُ ونعاني من صراع المسيحيين والمسلمين فيما بينهم، وعلى ديارِنا وإنساننا. إنهم يحبون السطوة والسيطرة، ولا يستطيعون قَبولَ الآخَر على قَدَمِ المساواة (انتهى الاقتباس). فالتشخيص والتوصيف الصحيح للنزاعات بين بني البشر حتّى لو كانوا من أهل الدين الواحد أنّ سببَها هو الذي ينهانا القرآن الكريم عنه في آية الكلمة السواء: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي إرادة التربُّب والاستكبار في مصطلح القرآن، وإرادة الهيمنة في التعبير الحديث والمُعاصر. لا شكَّ إذن في الاختلال الحاصل قديماً وحديثاً في العلائق بين الأُمَم والأديان والثقافات، والذي مردُّهُ كما سبق القولُ إلى سواد إرادة الهيمنة من هذا الجانب أو ذاك. وقد ترتبَّت عليها نزاعاتٌ وحروبٌ عالميةٌ عسكريةٌ واقتصاديةٌ وثقافية. ومع أنه لا يمكنُ بالفعل نسبةُ ذلك كُلِّه على المستوى العالمي إلى المسيحيين والمسلمين وحدهم؛ لكنّ الطرفين يتحملان على العموم أقداراً كبيرةً من المسؤولية عن الاختلالات والنزاعات؛ وذلك لأسبابٍ ثلاثة ـ **السبب الأول:** امتلاك المنهج الشامل للخلاص من طريق الاعتقاد، ومن طريق التبشير والدعوة، ومن طريق الشهادة وتحمُّل أعباء الأمانة.

bookaltafahom 34.indb 371 1/3/12 8:32 AM

فالمسـيحيةُ ديانةٌ عالميةٌ في منهجها ودعواها، والإسـلامُ دينٌ عالميٌّ في نهجه ودعـواه، وكلا الدينَيـن الإبراهيميَّيـن يضعان على عاتـق أتباعهما مسؤوليات الخلاص والسعادة والنجاة، والشـهادة أمام اللّه على البشرية، كما الشـهادة للبشـرية، مـن منطلق الإيمـان والفداء لدى المسـيحيين، والرحمـة والأمر بالمـعروف والنهي عن المنكر لدى المسـلمين. **والسبب الثاني:** ضخامة الأحجـام والأدوار لأتباع هاتين الديانتيـن، واللتين أدّتا وتؤديان هذه المهامّ على المسـتوى العالمي، منذ القرون الوسـطى وحتى اليوم. فمنذ القرن التاسـع الميلادي حقَّقت الديانتان انتشـاراً شاسعاً في سائر قارات العالم القديمة. والأهمُّ من ذلك أنه كان لهما وما يزال إشعاعٌ ثقافيٌّ ضخمٌ، وتأثيرٌ غـلّابٌ في الأفكار ومنظومـات القيم ومناهج العيش والتصرف. وكما كان الإسلامُ تأسيسيَّ التأثير العَقَدي والثقافي والسياسي في عوالم العصور الوسـطى؛ كان للمسيحية أو المسيحيات وما يزال تأثيرٌ عظيمٌ فـي عوالم الأزمنة الحديثة على مسـتوى العالم. وهـذا كلُّهُ إضافةً لضخامة أعـداد المؤمنيـن بالديانتين مقارنة بأي دينٍ آخر، لا من حيث العدد فقط، بل من حيث التأثير في تاريخ العالَم وثقافاته أيضاً. **والسبب الثالث:** الـدورُ الكبيرُ الذي لعبه الدينان في النُقلة الكونية التي شـهدها العالَم ويشـهدُها بين الرُبع الأخير من القرن العشـرين والرُبع الأول من القرن الحادي والعشـرين. فقد كان هناك اصطفافٌ بروتستانتيٌّ كاثوليكيٌّ إسلاميٌّ في مواجهة النظام العالمي الثُنائيّ القُطبية الذي ساد بعد الحرب العالمية الثانية في الجانب الجيوسياسـي والاستراتيجي، كما في الجوانب الدينية والثقافية. وكما في كلّ مرحلةٍ تاريخيةٍ فاصلة؛ فإنّ إرادات الهيمنة أدَّت إلى تفكُّك هذا الاصطفاف وتراجُع ثِماره في مجال إقامة نظامٍ عالميٍّ جديـد؛ لكنّ النُقلة كانت قـد تحقّقت، وأفادت منها أُمَـمٌ كثيرةٌ في إعادة ترتيب حياتها ومصائرها وسط الظروف والشروط الجديدة.

bookaltafahom 34.indb 372 1/3/12 8:32 AM

مَرَّ اختلالُ العلائق بين الدينين والجماعتين البشريتين الكبيرتين إذن بمرحلتين تاريخيتين مديدتَين: الأولى منذ القرن السابع الميلادي وحتى القرن السادس عشر الميلادي. والثانية منذ القرن السادس عشر وإلى أواخر القرن العشرين. في المرحلة الأولى ـ وعلى مدى تسعة قرونٍ على وجه التقريب ـ ظهر الإسلام وانتشر، وحقّق لصالحه تغييراً استراتيجياً لجهة السيطرة من جانب إمبراطورياته على أجزاء واسعة من آسيا وإفريقيا وأوروبا، كما السيطرة على المحيط الهندي والبحر المتوسط. وقد انتصر على الإمبراطورية البيزنطية المسيحية على المستوى الجيوسياسي في النهاية؛ إذ بعد مقاومةٍ استمرت حوالَي الثمانمائة عام استطاع العثمانيون فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية؛ لكنّ المسلمين ما استطاعوا تحقيق تقدمٍ بالقدْر نفسِه في المجالات الدينية والثقافية، على الأقلّ بحسب ما كانوا يرغبون؛ إذ كانت رغبتُهُم ـ أو لنقُل طموحُهُم ـ أن يعترف بهم اللاهوتيون المسيحيون باعتبار دينهم ديناً إبراهيمياً مثل المسيحية واليهودية. فقد تبيَّن من العرْض السابق أنّ النبيَّ محمداً والقرآن كانا يتوقان إلى اعترافٍ مُتبادَلٍ على أساس الاشتراك في الدين الواحد أو الوحدانية والمنظومة القيمية. أمّا مسيحيو الديار التي فتحها المسلمون في القرنين السابع والثامن فقد نظروا إلى الإسلام بوصفه سَوطاً إلهياً لمعاقبة سادتهم من البيزنطيين، ومعاقبة المسيحيين أنفُسِهِمْ؛ لأنهم أهملوا القيامَ بواجباتهم الدينية. في حين نظر اللاهوتيون البيزنطيون إلى الإسلام باعتباره تحريفاً وتشويهاً للمسيحية الحقَّة. ولذلك فقد

المسيحيةُ ديانةٌ عالميةٌ في منهجها ودعواها، والإسلامُ دينٌ عالميٌّ في نهجه ودعواه، وكلا الدينَين الإبراهيميَّين يضعان على عاتق أتباعهما مسؤوليات تحقيق الخلاص أو النجاة

bookaltafahom 34.indb 373 1/3/12 8:32 AM

رجا الطرفـان: ـ السـريان المتعرّبون، والبيزنطيـون ـ أن تتضاءل قوة أولئك الذين يرونهـم بدوًا غزاة ثم يزولون، كمـا زالت موجاتٌ بدويةٌ جَزَريةٌ من قبل. هـذان النزوعان نجدُهُما في كتابات مؤرّخي السُـريان ولاهوتييهم، ومؤرخـي الأرثوذكـس والبيزنطيين ولاهوتييهـم فيما بين القرنين السـابع والتاسع للميلاد. لكنْ أين نجدُ رغبة وطموحَ المسلمين لاعتراف المسـيحيين بدينهـم؟ نجد تلـك الرغبـة وذاك الطموح في الأعمال الكثيرة في النوع الأدبي المعروف باسم «الردّ على النصارى»، فهناك أبوابٌ طويلـةٌ عريضةٌ في تلك الردود في إثبات صحة نبوة النبي محمـد، وأنّ ذلك واضحٌ في التـوراة والإنجيل. ويُضـاف لذلك حديثٌ طويـلٌ أيضاً في أهميـة فكرة الوحدانية للإسـلام، وفـي صحة الوحْي القرآني، وأنه أَوضحُ لهذه الناحية وأدقّ من العهدين القديم والجديد. وقد أدرك ابن كمُّونة المفكّر اليهودي أهمية هذا الاعتراف وحساسـيتَهُ بالنسبة للمسـلمين، فكتب كتابه: الإنصاف للديانات الثلاث، ذاهباً إلى التوحُّد في الأصل الإبراهيمـي، والتكامُل في الفضائل فيمـا بينها؛ بَيْدَ أنّ المسـيحيين ردُّوا عليه أكثر من المسـلمين. وقـد أدّى ذلك الإنكار المتمـادي إلى ظهور اتجاهاتٍ راديكاليةٍ لدى مفكّري المسـلمين، فكان هناك مَنْ قال: ما دمتـم لا تعترفون بديننا، فنحـن لا نعترفُ بدينكم؛ مع أن ذلك يخالف صريحَ القرآن! ثم كان هنـاك مَنْ قال: إنّ الدليلَ على صحة الإسـلام أنه حقّق نجاحاتٍ كبرى في الامتداد وعدد الأتباع، وهذه بالطبع حُجّـةٌ فيها ما فيها! وعلى أي حال، وعلى مشـارف القرن السادس عشر، كانت المسيحيةُ قد اسـتجابت للتحدي بأشكالٍ مختلفة، من مثل الحروب الصليبية لغزو واحتلال قبر المسيح، ومن مثل استعادة الأندلس وجزر البحر المتوسط من السيطرة الإسلامية، والاستيلاء على شـواطئ الجزيرة العربية، وشـواطئ المغرب. وعندما كان البرتغاليون

bookaltafahom 34.indb 374 1/3/12 8:32 AM

يتجولون في المحيط الهندي في القرن السادس عشر، كان الوضْع من الناحية الاستراتيجية قد بدأ يميل لصالح أوروبا المسيحية. أمّا من الناحية اللاهوتية والثقافية في العلاقة مع الإسلام؛ فإنّ أيَّ تغيُّرٍ باتجاه الاعتراف بالإسلام أو الحوار معه ما كان قد حصل منذ ظهوره في الربع الأول من القرن السابع الميلادي.

بدأت المرحلة الثانية إذن في القرن السادس عشر الميلادي، وتميّزت بهجومٍ برتغاليٍّ في المحيط الهندي. وبعد البرتغاليين جاء الإسبان والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون والإيطاليون. واقترن هذا الهجوم المتعدد الرؤوس خلال القرون الثلاثة اللاحقة بأربعة ظواهر: حركة الكشوف الجغرافية والاستيلاء على العالم الجديد من جانب القوى الأوروبية الناهضة، وحدوث الانشقاق الكبير بداخل المسيحية، بحيث أدّى ذلك إلى فِصاماتٍ في رؤية العالَم، وعلائق الدين بالدولة، وتعدُّد مشروعات السيطرة على العالم باسم المسيحية تارةً وباسم الغرب تارةً أُخرى. والظاهرة الثالثة سيطرة فكرة الرسالة في سائر مشروعات الهيمنة والاستيلاء على العالم، وهي رسالةٌ مسيحيةٌ تارةً، ورسالةٌ حضاريةٌ تارةً أُخرى. والظاهرة الرابعة سواد ذهنيات التراجُع والانكفاء لدى المسلمين، والتي قابلتْها لدى الطرف الآخَر رغباتٌ غلّابةٌ بالامتلاك المعرفي والتبشيري والعسكري. وهكذا، وإنْ بدا كأنما تلك الاندفاعةُ الهائلةُ بحراً وبراً المقصودُ بها امتلاك العالَم الإسلامي فيما يُشبهُ الحروب الصليبيةَ الجديدة؛ فإنّ الأمْرَ كان أشمل من ذلك، ورمى ـ وبجَهدٍ واعٍ ومتصلٍ ومنظَّمٍ ـ إلى السيطرة على العالم بالقوة العسكرية، وبالتفوق التقني والثقافي، ثم التصارُع على اقتسامه بالتنافُس وبالغَلَبة وبالتشارك في الوقتِ نفسِه. ولذلك، ففي الوقت الذي كان يعادُ فيه صُنْعُ العالَم الجديد المكتشف على صورة الغرب

bookaltafahom 34.indb 375 1/3/12 8:32 AM

المرغوبــة، كانت الحضــاراتُ الآســيويةُ الكبرى: الإســلامية والهندية والصينية تتعرضُ إلى جانب الاســتيلاء لإعادة تشــكيل وتركيبٍ لذاتِها ووجودهــا وأولوياتها. وقد أوشــكت هــذه العمليةُ أن تُنجَز في أواســط القرن التاسع عشر، حين ســيطرت على العوالم الآسيوية الكبرى فكرتا التقدم والتلاؤم الأوروبيتين أو الغربيتين، وصار محكوماً على الرافضين للفكرتين أو المُمارســتين بالانقضاء أو الفناء باســم التخلُّف عن ركْب الحضارة والنهوض التاريخي. لقد ســادت بين المغلوبين الآسيويين على الخصوص فكرةُ الانحطاط أو الاضمحلال الحضاري، وأنّ البقاء للأقوى والأصلَح، وأنّ هــذا الأمر كما يســري على الأُمَم، يســري على الأديان والثقافــات. ووقْتَها راجت لدى النُخَب الإســلامية الجديدة الفكرةُ التي روَّجَها الاستشــراق عن الانحطاط الإســلامي الطويل، على مدى حوالي الألف عام، وأنّ الخروج من التخلُّف إنمــا يكونُ بالانضمام إلى الركْب الذي يقودُهُ الغربُ المهيمنُ على المستوى العالمي.

خلال القــرون الأربعة الماضية تعرض المشــروع الغربــيُّ للهيمنة على العالم لثلاثة تحدياتٍ داخلية: تحدّي الانقســام بداخل المسيحية، وتحدّي الصراع على اقتسام العالَم، وتحدي القومية الألمانية والرسالية الشــيوعية. في الحالة الأولى ـ أي الانقســام داخل المســيحية ـ أمكن بعد حــروبٍ ضارية التوافُق على إبعــاد الدين عن إدارة الشــأن العامّ، وإحلال الرابطــة القومية والوطنية محلّ الرابطــة الدينية. وفي الحالة الثانيــة ـ أي الصــراع على اقتســام العالَــم ـ أمكن ـ بعــد قرنين من التجاذُب والحروب ـ التوصُّل إلى إقامة نظامٍ دوليٍّ لتنظيم العلائق بين الوحدات القومية ذات الســيادة في أوروبا، وفي مســتعمراتها على مدى العالَم. وفي الحالة الثالثة ـ أي التحدي الألماني والســوفياتي ـ جرت الاســتعانةُ بالولايات المتحدة الأميركية التــي تعاونت في ضرب ألمانيا

bookaltafahom 34.indb 376 1/3/12 8:32 AM

واستيعابها، ومشـــاركة روســـيا في نظامٍ ثُنائيّ القُطبية، إلى أن تمكّنت الولاياتُ المتحدةُ وحلفاؤها قبل رُبع قرنٍ من تفكيك الاتحاد السوفياتي ومنظومته. بَيْدَ أنّ محاولتَها لتســويد الأوحدية القُطبية من جديد لقيت وتلقى تحدياتٍ كبــرى، مما يفرضُ بالفعل تطوير نظــامٍ عالميٍّ جديدٍ، ما تــزال تحولُ دون بلْورتِهِ تجارب القــرون الثلاثة الأخيرة من الهيمنة الاستراتيجية والثقافية على العالم.

لقــد كان موضــوعُ هــذه المحاضــرة وما يــزال منظومــة القيم والعلاقات بين المســيحية والإســلام. ومــا كانت الصفحــاتُ الأخيرة اســتطراداً؛ بل إنها كانت عرضاً موجزاً للمرحلــة الثانية من مرحلتي العلاقة بعد حقبة التأســيس. أمــا المرحلةُ الأُولى فيمــا بين القرنين السابع والســادس عشــر، فقد تميزت بظهور الإسلام، وســواد ثقافته وكياناتــه السياســية. وفي حين رأى الإســلام نفسَــه منذ التأســيس القرآني ديناً إبراهيمياً، واستهدف السعْيَ لتأسيس شراكةٍ مع الديانتين الإبراهيميتيــن الأُخريين، وحقّق بعض التجــارب الناجحة مثل التجربة الأندلســية التي تزامل فيها المسلمون واليهود والمســيحيون، ما قَبِل اللاهوتيون المســيحيون منذ البداية الاعتراف بالإسلام، رغم التشابُه إلى درجة التوحُّد أحياناً في الاعتقــاد ومنظومة القيم. ويعتقد المؤرّخ توبي هاف أنه فيما بين القرنين التاسع والســادس عشر؛ ظهر تعاوُنٌ وصل إلى حدود الشــراكة بيــن ثلاث حضاراتٍ كبرى هــي: الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية، والحضارة الأوروبية المسيحية. بَيْدَ أنّ السطوة الأوروبية بعد القرن السادس عشــر تنكَّرت للتجربة السابقة، ونسبت نفسَها وانتماءَها إلى الأزمنة الإغريقية والرومانية الكلاسيكية، وطوَّرت مشــروعاً للغَلَبة والهيمنة اتّخذ مَدَياتٍ كَونية، وكان من ضمن مجالات سطوته وسيطرته عالَمُ الإسلام أيضاً.

bookaltafahom 34.indb 377 1/3/12 8:32 AM

إنّ الأهمَّ فـي تجربة السـيطرة الأوروبيـة فالغربية أنهـا لم تكن عسكريةً واسـتراتيجيةً واقتصاديةً فقط؛ بل هي سـيطرةٌ قيميةٌ وثقافيةٌ أيضاً؛ أي في الأفكار ومناهج وأسـاليب الحيـاة والعيش. ولذلك، فكما أنهـا وُوجهت بمقاومـةٍ ومحاولاتٍ للتملُّـص على مدى العالـم وثقافاته وديانـاتـه؛ فإنها تركت أيضـاً آثاراً باقيـةً لن تزول في إعادة تشـكيل العالـم وجغرافيته وثقافاته بحسـب نموذجها الخـاصّ أو على مثالها. ومع أنّ أحد علماء المسـلمين قـال: ما تنصَّر الـروم (أي الأوروبيون)؛ بل إنّ النصرانية تَرَوَّمَتْ؛ فلا شـكَّ أنّ العالم القيمي المسيحي ظلَّ ذا تأثيرٍ كبيرٍ على الأوروبيين والأميركيين فـي مواطنهم الأصلية، كما في مستعمراتهم، ومواطن امتداد هيمنتهم. ومن هناك تأتي تلك الازدواجية في مقاربات ووجوه فهم وإدراك أوروبا وأميركا لديانات العالَم وثقافاته وأُمَمِه وتاريخـه ومصائره. ثم إنه فـي الوقت الذي تراجـع فيه تدخُّلُ المؤسسـات الدينية بالدواخل الأوروبية في القرن التاسع عشر ومطالع العشـرين، كان هناك اندفاعٌ ملحوظٌ في حركات التبشـير باتجاه سائر أنحاء العالَم التي نشـر الغربُ نفـوذَه فيها، ومن ضمـن تلك الأنحاء قارتا آسيا وإفريقيا وبلدان العالم الإسلامي في القارتين القديمتين.

جـ ـ الحوارُ المسيحي/الإسلامي وصراع الحضارات والأديان:

على أثَر الانتصار في الحرب العالمية الثانية، وبدء الثُنائية القُطبية والحرب البـاردة، بادرت الكنائسُ البروتسـتانتيةُ الكبـرى إلى التواصُل مع بعض الجهات الإسـلامية بالقارة الهندية والشـرق الأوسط، من أجل الدعوة لشراكة الإيمان في وجه الشـيوعية المُلْحِدة، كما قالوا. وقد كان واضحاً أنّ تلك المبادرة إنما حدثت في سـياق الحـرب الباردة والحرب الثقافية بين الجبَّارين. وقد رحَّب بعضُ المسلمين بهذه البادرة باعتبارها

bookaltafahom 34.indb 378 1/3/12 8:32 AM

الأُولى منذ آمادٍ سحيقةٍ وبخاصةٍ أنها لا تجري في سياقات الردود والجدالات. لكنهم طالبوا باعترافٍ متبادَلٍ على المستوى الديني، كما طالبوا بالتضامُن الديني والقيمي في وجه الهيمنة، والتعاوُن في إزالة آثار الاستعمار وتقسيماته، ومن ضمن ذلك قضيتا فلسطين وكشمير. وقد تفاوتت ردود الفعل لدى الكنائس على هذه التردُّدات. فقد كان هناك مَنْ قال: إنه لا تأثير للكنائس على سياسات الدول، كما كان هناك مَنْ قال: إنّ تحقيق الشراكة في مسألة الإيمان يمكن أن يكونَ مقدِّمةً لبحث القضايا التفصيلية. وتحقّقت خطوةٌ متقدمةٌ فَتَحَتْ منافذَ كثيرةً في مجمع الڤاتيكان الثاني (1962 ـ 1965م) الذي طُرحت فيه للمرة الأولى مسألةُ النَسَب الإبراهيمي، والاعترافُ بانتماء الدين الإسلامي إلى هذا النَسَب. ومع أنّ الإسلامَ لا يملكُ مؤسَّسةً مركزيةً تُتَّخذُ فيها القراراتُ الاستراتيجية، فالمفهومُ أنّ العلاقات الإسلامية / المسيحية اتجهت للتحسُّن عندما طُرح الملفُّ القيمي في الستينات والسبعينات من القرن الماضي. إنما ما تحقَّق تقدمٌ كبيرٌ رغم المؤتمرات الكثيرة للفهم المُتفاوت للنسب الإبراهيمي، وللأبعاد الدينية والسياسية للقضية الفلسطينية. وأخطأ الروسُ خطأً كبيراً بالتدخُّل العسكري في أفغانستان، فبدا كأنما هناك حِلْفٌ غير معلَنٍ قد قام بين البروتستانت والكاثوليك والمسلمين بقيادة الولايات المتحدة لمكافحة الشيوعية. ثم ما لبث كلُّ شيء أن تعطَّل أو انقلب عندما ظهرت فكرةُ صراع الحضارات، وتوجُّهات الهيمنة بعد انقضاء الحرب الباردة، وعندما كان الجميع ـ بمن فيهم المسلمون ـ ينتظرون التَلاقي على المنظومة القيمية الإبراهيمية، والتلاقي على نظامٍ عالميٍّ جديد.

إنّ المفهوم أنّ العلاقات الإسلامية ـ المسيحية اتجهت للتحسُّن عندما طُرح الملفُّ القيمي في الستينات والسبعينات من القرن الماضي

bookaltafahom 34.indb 379 1/3/12 8:32 AM

لقد شـهد العقدان الأخيران من السـنين إحيائياتٍ كبرى في سائر الأديان، وبخاصةٍ البروتستانتية والإسلام واليهودية. ومن خلال شعارات الخطر الأخضـر وصراع الحضـارات ومُجازفات التشـدد والأُصوليات، استقرّ في أخلاد مسـلمين كثيرين أنّ هناك توجُّهاً عالمياً كبيراً وغلّاباً لمواجهة الإسـلام باعتباره الخطرَ الجديـدَ على العالـم بعد انقضاء الشيوعية والثنائية القطبية. وقد اقترن ذلك بمقولات الهيمنة والأوحدية القطبيـة باعتبارهمـا الضمـانَ للحرية والسـلام في العالـم في وجه «الإرهاب الإسـلامي»، والاسـتثناء العربي، والاسـتثناء الإسـلامي؛ في مواجهة قيم الديمقراطية وحقوق الإنسـان والسـلام. وجـاءت هجماتُ القاعدة في 11 سـبتمبر عـام 2001م كأنما لتُدلِّلَ علـى الأخطار التي يشـكّلُها الإسـلام على العالم. وحتى الحروب التي دارت ضدَّ الإرهاب، جرت تغطيتُها ليس بمكافحة العنف باسـم الإسـلام فقط؛ بل وبضرورة فرض قيم التسـامُح والانفتاح والديمقراطية التي لا تنتشر ثقافتُها بين المسـلمين. وحتّى أولئك الذين مـا كانوا يقولـون بالمواجهة ولا يرون جدْواها، أقبلوا على دعوة المسـلمين إلى التلاقي على قيمٍ مشـتركةٍ أو أخلاقٍ عالميـة، كان واضحاً لديهـم أنّ الديانات الأُخـرى الإبراهيمية وغير الإبراهيمية تملكُهـا وهي حاضرةٌ فيها، أمّا المسـلمون فينبغي أن تتطور لديهم تلك القيم والأخلاق من خلال إصلاحٍ دينيٍّ راديكالي! ثم انطلقت حركاتُ التغيير العربي الداعية لقيم وشعارات الكرامة والحرية والعدالة والديمقراطية، فَتَهاوت دُفعةً واحـدةً أدبياتُ الصراع على مدى العشرين سـنةً الماضية. وبدا أنّ إرادات الهيمنة واستراتيجيات الصراع والاسـتنزاف هي التي كانت تصنعُ التوتُّرات أو تدفعُ إليها. وربما كانت تلك السياسـات الصراعية هـي التي أخَّرت حـدوثَ التغييـر والتحول السلمي هذا على مدى العشرين سنةً الماضية!

bookaltafahom 34.indb 380 1/3/12 8:32 AM

د ـ رؤيةٌ مفتوحةٌ لعالمٍ جديد:

يقولُ أبو الحسن العامري (381هـ) وهو مفكّر مسلم عاش في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، في كتابه: «الإعلام بمناقب الإسلام» مُعلِّلاً إقبال الناس على الإسلام وتركهم لدياناتهم القديمة: إنّ تلك الأديان كانت تقسمُ الناس إلى مراتب وطبقات، وهو أمرٌ لا تقبلُهُ النفوسُ الأبية. وهذا معنى دعوة القرآن للمسلمين والمسيحيين واليهود ألا يتخذ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون اللّه. لقد أفسدت إراداتُ الهيمنة وممارساتُها العلاقات ليس بين أهل الديانات الإبراهيمية فقط؛ بل بين سائر البشر وعبر عصورٍ مُتطاولة. وقد راجعْتُ في هذه الكلمة مسؤوليات المسلمين والمسيحيين وتبِعاتهم في عمليات الفساد والإفساد، وبخاصةٍ أنّ كثيرين من رجالاتهم يستحضرون الدين والخُلُق لتعليل هذا التصرُّف أو ذاك. وهذا أمرٌ يستحقُّ الاهتمام والاحترام إذا أُخِذَ مأخذ الجِدّ وليس للتغطية أو الاستغلال. ففي القرآن الكريم يرد وبصيغٍ مختلفةٍ ومئات المرات قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالإيمان ينبغي أن يكونَ دافعاً للعمل الصالح؛ لأنه يستتبعُ منظومةً من القيم تتمثّل في المساواة والحرية والكرامة والرحمة والعدالة والتعارُف والخير العامّ. ومن طريق هذه المنظومة تُصانُ الضروراتُ الخمسُ التي تحدَّث عنها الفقهاء في المسألة الإنسانية، وهي: حقُّ النفس أو الحياة، وحقّ العقل، وحق الدين، وحقّ النسل، وحقّ المِلْك. وقد يقولُ قائلٌ: إنه لا ضمانات لتطبيقها، وتجاربُ الأُمَم الداخلية ومع الأُمم الأُخرى تُثبتُ أنّ هذه الحقوق ما رُوعيت في أغلب الأحيان، إمّا من جانب الناس بعضِهم مع بعض، وإمّا من جانب السُلُطات تُجاه الناس. وهذا هو الفرقُ بين المسؤولية الدينية والأخلاقية، والمسؤوليات الأُخرى المدنية والسياسية. ففي المسؤولية الدينية والأخلاقية هناك الدوافعُ الداخلية،

bookaltafahom 34.indb 381 1/3/12 8:32 AM

والالتزام الذي يصنعُ العمل الصالح من ضمن القصْد والحرية والاختيار ووعـــي الدوافع والأهداف. والواقـــع أنه كانت هناك دائمـــاً ضغوطٌ على الأفراد المتديّنين بهـــذا الاتجاه أو ذاك، فلا يبقـــى من خلال التجربة غير «الباب الضيّق»، أو كما جاء في الحديث إنه يأتي على الناس زمانٌ يكونُ فيه القابضُ على دينه كالقابض على الجَمْر. لكنّ شـــأنَ المؤسسة الدينية أو الســـلطة مختلفٌ عن شـــؤون الأفراد، وهذه الجهات تميلُ في الغالب إلى الســـهولة، والتمظْهُر. واختيار التسلط والهيمنة أسهل بكثير من اختيار قيم وســـلوكات الأخلاق والمســـؤولية والرحمة للناس والعمل من أجلهم. فماكس فيبر على ســـبيل المثال يرى أنّ أخلاق المســـؤولية لدى السياسي شاقّة الاتّباع، لكنّ هذا هو الفرْقُ بين رجل الدولة الكبير والسياسي العادي.

إن التجربة التاريخية في العلاقة بين الدينين الكبيرين المسيحية والإسلام، بل وتجربة السنوات العشـــرين الماضية في المجال الديني والسياســـي، تشـــيران إلى ضرورة تجاوُز الهيمنة والإلغاء من الناحية الدينية من طريق التعـــارُف والاعتراف بالتعدديـــة الدينية والثقافية، كما تؤكدان على الاعتـــراف بتعدديةٍ قُطبيةٍ في المجال السياســـي من طريق الاعتراف المتبـــادَل بالحقوق والمصالح. ففـــي المجال الديني كانت المشـــكلةُ دائماً الإيمان بإطلاقية الحقيقة التي يقولُ بها، والميل الجارف لإلغـــاء الآخر الديني، واعتبـــار دينه مزيَّفاً. والكلمةُ الســـواء في القرآن الكريم تعني الاعتراف بالآخر ديناً ووجوداً إنســـانياً وعدم الاتجاه لإلغائه. والهيمنةُ السياســـية كانت تعني وما تزال عدم احترام حقوق أو مصالـــح الآخرين اعتماداً على ضعفهم أو عدم اســـتحقاقهم. وها هي ذي حركات التغيير العربية الجاريـــة تُثْبت كم تولَّد على هذا الإقصاء من مرارةٍ، وإرادةٍ للذهاب في الاحتجاج إلى حدود الاستشهاد

bookaltafahom 34.indb 382 1/3/12 8:32 AM

من أجـل الكرامة المهضومة؛ بَيْدَ أنّ ما نذكـره لا يعتمد على الاقتناع الذاتي فحسْـب؛ بل يعتمد أيضاً علـى التوازُن والعـدل، وعدم إمكان الاسـتمرار والتمادي على المسـتوى المحلي أو الدولي بسـبب تزايُد الوعْـي، وتداخُل العوامل غير المحسـوبة سـلفاً. ولننظـر في تجربة المسيحية مع الإسـلام في الأزمنة المُعاصرة، نجد أنّ المسيحية يكونُ عليها أن تؤدّي دوراً مهماً في التعارُف والاعتراف، وفي قضية فلسطين، وفي رعاية وحفظ العيش المشترك، ولا يرجع ذلك إلى تبادُل المنافع؛ بل إلى المسؤولية والشهادة، رغم أنّ المصالح يمكن أخذُها بالاعتبار حتى في الدِّين. ثم إنّ صرخة الـدالاي لاما ـ التي ذكرناها في مطلع الكلمة ـ تشـير إلى ضرورات تأمُّلٍ نقديٍّ للذات، ما عاد يمكن تجاوُزُهُ أو الاستغناءُ عنه. ولا شكّ أنه لا مَنْجى للخروج من الهيمنة الطغيانية إلا بالتعدديـة القطبيـة، وهي الأُولى فـي حفظ الاسـتقرار والتوازُن. لقد ظهر الآسـيويون الكبار، ومـا عاد يمكن تجـاوُز الصين أو الهند أو اليابان أو إندونيسـيا أو تركيا أو البرازيل. وهذه «الفلسفة» ليست مصلحيـة، فقد علمتنا التجارب القديمة والمعاصـرة أنّ الوحدانية في القطبيـة تصنع الحـروب والفوضى، ولا بـد من عالمٍ جديـدٍ متعدد الأقطاب.

في عام 1972م ـ وعندما كانت حرب ڤيتنام ما تزال مشتعلة ـ أصدر جون رولز كتابـه: «نظرية العدالة»، فتقدم ـ وهو الفيلسـوف المدني ـ على رجال الأديان في هـذا الموضوع القيمي. وبعد الهيمنة والاسـتئثار والاسـتنزاف وصراع الحضارات، يكون علينا ـ نحن المسـلمين ـ وعلى المسيحيين، ومن أجل الإيمان والعمل الصالح الاتجاهُ للموضوع القيمي؛ لتجاوز الإنـكار والهيمنة والإلغـاء من جهة، وللنظر فـي جديد القيام بعمل مشـتركٍ بين الدينيـن الكبيرين ما اسـتطعنا القيام بـه معاً ولا

bookaltafahom 34.indb 383 1/3/12 8:32 AM

بالتعاون مع العالم، رغم ضرورة ذلك لحاضر العالَم ومستقبله. وذلك من خلال النقاط الأربع التالية:

أولاً: إنّ دراسةً متأنيةً لأسباب الافتراق بين المسيحيين والمسلمين في التاريخ والحاضر ـ رغم الاتفاق في الاعتقاد وفي منظومة القيم ـ تشير إلى أنّ إرادة الهيمنة كانت دائماً وراء ذلك. ولذا فإنّ الإصلاح للعلائق على المستوى الديني وعلى المستوى الاستراتيجي يقتضي العودة للتمسك بالمنظومة القيمية ليس بين المسلمين والمسيحيين فقط؛ بل وفي العالم أجمع، وهي تقوم على المساواة والكرامة والحرية والرحمة والعدالة والتعارف والخير العام. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وهذا يعني الإصرار على الالتزام بالمنظومة وقيمها وإن لم يستجب أهل الكتاب لذلك؛ بيد أنّ الالتزام برفض التربُّب والاستكبار والهيمنة إن لم يحصل على دعم وموافقة المهيمنين؛ فلا شكَّ أنه سيحصل على استجابةٍ من الجهات التي عانت ما يُعانيه المسلمون أو غيرهم من الهيمنة والاستئثار. ويعني ذلك في المدى المتوسط الدخول في تحالُفٍ بين الحضارات، حريٌّ أن يحصل على الإجماع في مدىً منظور عندما يرى المهيمنون استحالة الاستمرار منفردين.

إنّ هذا الإصرار على مغادرة معسكرات وترتيبات الهيمنة عِلَّتُهُ النظر فيما كان زمنَ الحرب الباردة، وفي العقدين الأخيرين. فالنظام أو اللانظام الأول كان فيه توافُقٌ على المنع من الحرية، والنظام الثاني كان فيه تشبُّثٌ بالأوحدية القطبية المدمِّرة. لقد فشلت الهيمنة كما فشل نظام الحرب الباردة من قبل، ودخل

bookaltafahom 34.indb 384 1/3/12 8:32 AM

المسلمون ـ شأنهم في ذلك شأن العالم كلّه ـ في زمنٍ جديدٍ لرفض الهيمنة، ولتسويد قيم التعارُف والاعتراف والحرية والكرامة. وهذه القيم التي تنبعُ في الأصل من الدين الإبراهيمي، يمكن بالإخلاص والالتزام والشهادة والدعوة أن تكونَ مناطَ اهتمامٍ عالمي. لقد تعذّر ـ رغم الجهود الكبيرة ـ إقامة العلاقات بين أهل الدين الإبراهيمي على أساسٍ من هذه القيم. وينبغي قراءةُ هذه الحقيقة قراءةً نقديةً، وعدم فقد الأمل في التلاقي على قدم المساواة، إذا وطَّن كُلّ فريقٍ نفسَه على مفارقة الهيمنة والاستكبار واعتقاد التفرد بالحقيقة والسيطرة باسمها.

لقد كان طموح البشرية دائماً إقامة أنظمةٍ للحرية الإنسانية والدينية والسياسية، وإقامة نظامٍ عالميٍّ يتساوى أطرافُهُ ويتعاونون ويتضامنون

ثانياً: إنّ الإصرار على الاختلاف والاعتراف والمسالمة والتسابُق في الخيرات في المجال الديني والأخلاقي، رفضاً للهيمنة والاستضعاف والسطوة، يعني أيضاً ومن الناحية القيمية تعدديةً في المجال الاستراتيجي العالمي. فالعالم كما عانى من سلبيات الهيمنة باسم الدين، عانى أكثر من سلبيات الهيمنة باسم الحرية أو الاستقامة السياسية أو حفظ الأمن والاستقرار. لقد كان طموح البشرية إقامة أنظمةٍ للحرية الإنسانية والدينية والسياسية، وإقامة نظامٍ عالميٍّ يتساوى أطرافُهُ ويتعاونون ويتضامنون من دون هيمنةٍ ولا استضعاف، بل بالندّية وقيم التعددية الدينية والثقافية والسياسية. وقد كان هذا طموح البشرية عشية الانتصار في الحرب العالمية الثانية على الفاشية. لكنّ النظام الموعود ـ كما سبق القول ـ لم يَقُمْ بسبب الثُنائية القُطبية، ثم الهيمنة الأوحدية بعدها. وإننا إذ ندعو إلى تعدديةٍ على المستوى الديني يطلبها منا دينُنا

bookaltafahom 34.indb 385 1/3/12 8:32 AM

الإبراهيمي؛ فإننا في العالم الإسلامي لا نرى أملاً في السلام والعدل والاســتقرار إلّا بالتعدديــة في المجــال الاســتراتيجي العالمي أيضاً. إننا نشهد منذ عقدين ونيِّف ظهور آسيويين كبار، من أُمَمٍ عانت قروناً من الهيمنة والاســتضعاف والاســتعمار. ولذا فالأمــلُ والعملُ أن تقوم تعدديةٌ قطبيةٌ تشــارك فيها أطرافٌ من سائر القارات وتُنهي الثُنائيات والأوحديــات. إنّ الاســتبداد مدمِّــرٌ في الديــن، ومدمِّرٌ فــي الأنظمة السياســية، ومُدِّمرٌ على المســتوى العالمي. وهذا أمرٌ خبرناهُ وعانينا منه، وينبغي العملُ باسم الخُلُق والدين لعدم العودة إليه.

ثالثــاً: إننا نحتــاج نحــن المســلمين إلى مُراجعــةٍ نقديــةٍ لعمل جهاتنا الدينيــة وعلمائنا فــي المرحلــة الماضية. فقد كان الانقســام وكان الاســتكبار ســائديْن في كلّ مــكان. وقد أدّى ذلــك إلى خطأ في الفهم والتشــخيص أحياناً، وإلى راديكالياتٍ سلبيةٍ أحياناً أُخرى. ونحن محتاجون في المجال الإســلامي/ الإسلامي، وفي مجال العلاقة مع أهل الدين الإبراهيمي إلى مراجعــاتٍ كبيرةٍ حتى لا نظــلَّ نعمل بالمعطيات القديمة والوقائع القديمة، علينا التفكير في كيفية إعادة بناء المشــهد الإســلامي والعالمي، والعلائق بأهل الدين الإبراهيمي، وإعادة تشــكيل العلاقة بيــن الدين والدولة دونمــا غلبةٍ ولا إقصاء. وكما ســبق القول فإنّ هذه المسائل جميعاً كان يسودها الانقســام أو التطرف أو الهيمنة والاســتكبار. والمقاربة الإيجابيــةُ اليوم تقتضي رؤيــةً إيجابيةً لا يمكن تصورها من دون الرؤية الجديدة.

رابعاً: المسلمون أمةٌ كبرى، ذات موروثٍ عريق، وعلائق في سائر الأنحــاء؛ لكننا في المائتي عــام الأخيرة انكفأنا وانكمشــنا بحيث ما تمكنّا مــن إدارة العلاقة مع أهل الدين الإبراهيمــي، ولا مع مُجاورينا

bookaltafahom 34.indb 386 1/3/12 8:32 AM

الأوروبيين. فلا بُدَّ من الاتجاه من جانبنا ـ نحن رجالات الفكر الإسلامي ـ إلى نهوضٍ جديدٍ، ورؤيةٍ جديدةٍ للعالم؛ لكي نتمكن من الإسهام إسهاماً بارزاً في صُنْع ما نُطالبُ به من نديّةٍ وإنصاف وتعدديةً في الزمن الجديد. لا بد من الاتجاه ـ على سبيل المثال ـ إلى الأُمم الآسيوية وأديانها وثقافاتها وأخلاقياتها، وإلى المسيحيات والإنسانويات الجديدة في أميركا اللاتينية. صحيحٌ أنّ هناك تاريخاً، لكنْ هناك أيضاً متغيراتٌ هائلةٌ حتى لدى أقراننا من المسيحيين. ولا بد من الفهم لكي نصل للتقدير الصحيح والتعامل الصحيح وبناء الشراكات الصحيحة الجديدة أو القديمة إنما بالشروط الجديدة، وعلى مدى العالم.

إننا نخرج من الهيمنة ومن راديكاليات الانقسام. ولا بد من استقبال المستجدات برؤى جديدةٍ وبمناهج جديدة، سواء في العلائق فيما بيننا نحن المسلمين والمسيحيين، أو في العلائق بالعالم. فهذه البشرية الجديدة تملك الأشواقَ نفسَها، وتسعى سعياً حثيثاً لتثبيت إنسانيتها وحريتها وكرامتها، وينبغي أن نكونَ مستعدّين ـ نحن المسلمين والمسيحيين ـ لاستقبال هذا الجديد وللشهادة له وعليه، أَوَ لم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾. فبالتعارُف والاعتراف بالاختلاف، والتزام جانب النزاهة والتقوى نضع الأُسُسَ الجديدة لعالمٍ جديد.

لقد جربت الإنسانية في فترةٍ قصيرةٍ كلَّ أشكال النظم الأَيديولوجية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية، كما جربنا ـ نحن أهلَ الأديان ـ مسائل الحوار والتشاوُر والتقارُب، ولعدة أجيال. والذي نراه أنّ المعاناة الإنسانية ما تزال مستمرةً إلى تزايُد، ولا يتفاءلُ

bookaltafahom 34.indb 387 1/3/12 8:32 AM

بذلك الكثيـــر من النـــاس، فالمطلـــوب منا ومـــن المســـيحيين على الخصوص إعادةُ النظر والإصلاح والتوجه بعيـــونٍ وعقولٍ جديدة نحو قيم الوحدانيـــة والإله الواحد، ونحـــو نظامٍ للتبـــادل الاقتصادي غير المســـتغلّ، والتعدديـــة القطبية، والمســـؤولية الأخلاقية عن إنســـانية الإنســـان وكرامتـــه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ صدق الله العظيم.

bookaltafahom 34.indb 388 1/3/12 8:32 AM